

تفنيد المزاعم

## صورتان متضادتان لعقيدة الإسلام ورسالته

(ردا على ما كتبه كريغ وين بعنوان: محمد رسول الهلاك)

(٣)

الدكتور / صلاح الدين الندوي، الأزهرى

### ج. الاستعمار الغربى ونواياه

ويحسن بنا أن نذكر هنا ما هو الاستعمار الأوروبى أو الغربى؟ "فهو اصطلاح حديث، جرينا فيه على ما اصطلاح عليه الأوربيون في عصور الاستعمار، من تقسيم العالم إلى الشرق والغرب، يعنون بالغرب أنفسهم، ويعنون بالشرق أهالى آسيا وإفريقيا، الذين كانوا موضع استعبادهم واستغلالهم. وإن كانت الكلمة حديثة اصطلاحا و استعمالا، فهى قديمة في مفهومها ودلالاتها. فقد كانت فى العالم من زمن قديم قوتان تصطرعان و تتنازعان السيادة، إحداهما فى الشرق، والأخرى فى الغرب، و تمثل ذلك الصراع بين الفرس والروم - كما رأينا - ثم الصراع بين المسلمين والصليبيين، ثم بين العثمانيين والأوربيين، مدا وجزرا، ثم كان آخر فصول هذه الملحمة الصلات بين الشرق ممثلا في آسيا وإفريقيا، و بين الغرب ممثلا في أوربا وأمريكا، وهي صلات متنوعة بعضها ثقافي، و بعضها اقتصادي، وبعضها سياسي، والصلات بين الشرق والغرب التي جرت أحداثها خلال القرنين الأخيرين في جانبها الثقافي، فلها أثرها في الإسلام بصفة خاصة، وهي صلات تميزت عن الصلات الأخرى التي تمت من قبل بطابع معين، يرجع ظروف هذا الاتصال التي تغاير كل ما سبقها من ظروف وملابسات. فقد كان اتصال الإسلام بغيره من الحضارات والثقافات دائما اتصال الغالب بالمغلوب، أو اتصال الند بالند. أما اتصاله بالغرب في هذه الفترة الأخيرة، فقد كان اتصال المغلوب بالغالب. لأن الدول الأوروبية كانت قوية بثوراتها الصناعية الحديثة، وبسياستها التوسعية والاستعمارية والتدخلية، وكانت تفهم أن الدول الإسلامية عامة، والخلافة

العثمانية خاصة هي العدو الوحيد والعقبة الأساسية في طريقها نحو الأمام، وبذلك كانت تهدف دائماً إلى تدمير الخلافة الإسلامية كلية، ومحاولة التغلب على الدول الإسلامية، وكان الأوروبيون قد بدأوا يتطلعون إلى الدول الإسلامية، فيسيل لعابهم، ثم تبدأ أنيابهم تنهش هذا الجسد للأمة الإسلامية عضوا عضواً، وإربا إربا. (١٢)

ونسأل الآن المؤلف (وين) من هو المسئول عن الدمار والخراب الذي لحقت به الدول الإسلامية من المستعمرين الأوروبيين المخربين؟ يجب أن يطالع المؤلف الأمريكي التاريخ الحديث، ليعلم هذه الحقيقة أن عقيدة الإسلام ورسالته رحمة للبشرية جمعاء، ونبينا محمد ﷺ هو "رحمة للعالمين".

قال المؤلف: (إن التزيف الذي ارتكبه محمد جعل بلايين المسلمين يعيشون في حالة فقر اجتماعي واقتصادي وديني وثقافي ..).

إن الفقر والبؤس الذي نراه في دول العالم الإسلامي ليس سببه هو الإسلام، ولا الذي جاء به النبي ﷺ من شرائع وأحكام نافعة. وإنما هو الاستعمار الغربي الغاصب، ثم القائمون بأمر المسلمين في بلادهم، ثم نظام البنوك والمعاملات اليهودي الإبليسي القائم على الربا، وبهذا النظام نرى يكسب واحد ويخسر الآخرون ملايين من الدولارات في لحظة واحدة.

في الواقع المؤلف الأمريكي يريد أن يشير إلى أن المجتمع الإسلامي معناه المجتمع الفقير، فنسأله ما علاقة الدين الإسلامي بالفقر والبؤس؟ إن المجتمع الإسلامي ليس فقيراً، ولكنه يتمتع بنعمة الاستغناء، الفقر لا يعتبر عيباً من العيوب الاجتماعية عند المسلمين، والمؤمن الفقير يعتز بفقره، وشأنه في فقره ليس أقل من سلطان.

وحين ندرس الغرب لنرى كيف نشأ وتطور وكيف وصل إلى الذروة في القرن التاسع عشر، نرى أنه قد وصل إلى بداية نهايته، ونحن لا نقول هذا الكلام، وإنما الكثير من فلاسفة الغرب الآن يقولون: ربما بدأت النهاية، (سبنلر) يتكلم عن انهيار الغرب. (هوسر) يتكلم

(١٢) الإسلام والحضارة الغربية للدكتور محمد حسين ص: ١١-١٢، دار الإرشاد، مطبعة دار الكتب، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٦٩ م.

عن إفلاس الغرب. (توينبي) عن محاكمة الغرب. (فاكسيل) يتكلم عن انقلاب القيم في الغرب. (هوسر) يتكلم عن أزمة العلوم الأوروبية. فكثير من الفلاسفة الآن يقولون إن الغرب أصبح في أزمة كبيرة. ربما نحن نشاهد نهاية العصور الحديثة. أعلن (نتشيه) أن الله قد مات، ويحيى الإنسان. وأعلن (كارل ماركس) أن الإنسان كذلك قد مات. فلا أحد يحيى في الغرب. فالغرب في النهاية. (١٣)

فيمكن أن نستنتج أن ظاهرة اللادينية التي هي شائعة في الغرب، قد تكون من آثار الأمراض النفسية للمجتمع الأوروبي الملحد المريض الذي وصل إلى نهايته. وحالة هذا المؤلف الأمريكي قد لا تختلف عن تلك الحالات. وقد تكون حالة المؤلف هذه عبارة عن وجود هيجان في تصرفات الأوساط المسيحية المتعصبة بالإقبال المتزايد على دراسة الإسلام في الغرب، باعتباره علاجاً مناسباً لأمراضهم الاجتماعية، وحلاً وحيداً لقضاياهم العصرية، وكتابه هذا قد يكون مجرد محاولة لتخويف الغرب من الاقتراب من هذه الشجرة المحظورة (الإسلام) عند الوجوديين الماديين اليائسين في الغرب.

في الواقع كلام المؤلف ليس صحيحاً، بل العكس هو الصحيح. إن الدول الغربية المستعمرة أكلت ما كان في خزانها المملوءة من ممتلكات الشعوب الضعيفة، التي أخذتها من مستعمراتها في آسيا وإفريقيا، بعد أن تظاهرت بكل براعة ومهارة وخبرة طويلة في اللصوصية، وأباحت لنفسها أموال تلك السرقات باعتبارها غنائم الاستعمار، وتلك الخزائن أصبحت خالية الآن، فجاءت مرة أخرى لاحتلال تلك الدول الإسلامية بالقوة، إنه ذلك اللص القديم الذي جاء إلينا هذه المرة بملابس الثقافة العصرية، لتملاً خزانها الخالية مرة أخرى. ويبدو من كلام المؤلف أنه بعيد عن النزعة الدينية، بل أتجاوز خطوة وأقول إنه يكره كل دين بميوله المادية، وشاعر الإسلام محمد إقبال كان له حق لينوه بأساس الحضارة اللادينية، ويقول:

(١٣) الإسلام وتحديات العصر (مقال) للأستاذ حسن حنفي مجلة "جوهر" ص: ١٨٠ عدد يونيو ٢٠٠١م الصادرة من الدراسات العليا بجامعة شريف هداية الله الإسلامية الحكومية، جاكارتا - إندونيسيا.

”ولكن إياك والحضارة اللادينية التي هي صراع دائم مع أهل القلوب (يقصد أصحاب الحق والمعرفة) تجلب مفاتها، وتقوم بإعادة اللات والعزى إلى الحرم مرة أخرى، إن القلب يعمى بتأثيرها، وإن الروح تموت عطشا في سرابها، إنها تقضى على لوعة القلب، بل تنزع القلب من القلب، إنها الص بارع وقديم، لها خبرة في اللصوصية، فتشن الغارات ليلا ونهارا، وصباحا ومساء أو علنا وجهرا، إنها لا تدع الإنسان إلا ولا روح فيه، ولا قيمة له“. (١٤)

ويقول:

”إن شعار الحضارة الحديثة الفتك ببني آدم، الذي تقوم عليه تجارتها، وتنفق سلعتها، ليست هذه البنوك إلا وليدة دهاء اليهود الأذكىاء، التي انتزعت نور الحق من صدور بني آدم، إن العقل والحضارة والدين حلم من الأحلام ما لم ينقلب هذا النظام رأسا على عقب“. (١٥)

يقول أيضا:

”لقد تضخم العلم وتقدمت الصناعة في أوروبا، ولكن أوروبا في الحقيقة بحر الظلمات، ليست فيه عين الحياة، إن مباني بنوكها تفوق مباني الكنائس في البناء والتعمير والبهاء والكمال، والإناقة والنظافة، ويبدو أن معاملاتها التجارية تجارة، ولكنها قمار في الحقيقة، يربح فيه واحد ويخسر ملايين من الناس في لحظة واحدة، إن هذا العلم، وتلك الحكمة والسياسة والحكومة التي تتبج بها أوروبا هي مظاهر جوفاء (ودعايات كاذبة) ليست وراءها أية حقيقة، إن قادتها يمتصون دماء الشعوب ويتظاهرون بأنهم يقومون بتدريس الدروس في المساواة الإنسانية والعدالة الاجتماعية“. (١٦)

”إن البطالة والعري وشرب الخمر والفقر كل هذه الأشياء متوافرة لدى الحضارة الغربية، فهل هذه كلها من غنائم فتوحاتها وانتصاراتها المدنية قليلة؟ إن الأمة التي لا نصيب لها في التوجيه السماوي والتنزيل الإلهي، وغاية نبوغها تسخير الكهرباء والبخار، إن المدنية التي تتحكم فيها الآلات وتسيطر فيها الصناعة، تموت فيها القلوب ويقتل فيها الحنان

(١٥) ماذا ينبغي أن نعمل يا أمم الشرق ص: ٤١

(١٤) ضرب الكلم ص: ٩٨-٩٩

(١٦) ماذا نعمل يا أمم الشرق ص: ٨٥

والوفاء ومعاني الإنسانية الكريمة“ (١٧)

### د. عقيدة الإسلام ورسالته

إن المستشرقين يقولون إن شريعة الإسلام معظمها مأخوذة من شريعة اليهود، والمؤلف يقول: إن محمدا اخترعها لسرقة أموال الفرس والبيزنطيين. يعني حسب قول المستشرقين نستنتج أن الشريعة اليهودية هي الشريعة الإلهية، والشريعة الإسلامية مأخوذة من شريعة إلهية، فالشريعة الإسلامية هي الأخرى شريعة إلهية، سواء كانت هي مأخوذة من التوراة أو من القرآن الكريم الذي نسخ كتب أهل الكتاب السابقة المحرفة. والمؤلف الأمريكي يدعي أنه درس الشريعة الإسلامية، فوجدها مزورة لا أساس لها من الوحي، وهي منبع كل شر وفساد، فكل منهم يكذب الآخر، وأما نحن فلا نعلم سوى أن عقيدة الإسلام ورسالته هي (تنزيل من حكيم حميد).

وقال المؤلف: إن سنة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت لقتل غير المسلمين جميعا والإبادة البشرية إلى آخرها، فنسأله كيف عاش في (يثرب) اليهود والمسلمون جميعا جنبا إلى جنب في جو التعاون والاحترام المتبادل في السلم والحرب في عهد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم؟ ولو كانت سنة المسلمين هي القتل والدمار، لما بقي اليوم وجود لأي يهودي أو نصراني في شبه الجزيرة العربية، والشام ومصر، وما شوهدت اليوم آثار هذه المقدسات للمسيحيين في القدس ولا في الأراضي العربية المحتلة. وكل من له الإلمام بالتاريخ يعلم جيدا ماذا فعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) مع مقدسات المسيحيين في القدس، وعمر بن العاص (رضي الله عنه) مع مقدساتهم في مصر حين فتحها، وكل من له الإلمام بسيرة عمر بن الخطاب، وعمر بن العاص رضي الله عنهما يعلم جيدا أن عدالة الإسلام لم تكن أقل من عدالة كسرى أو شيروان عندهما، وإنما العدالة الاجتماعية في الإسلام هي فوق كل اعتبار.

فلم ينقص حقوق أهل الكتاب، لا في عهد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا في عهد الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم جميعا) لأن الرسول الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عني بعد الهجرة بالاتفاق مع اليهود الذين كان

يقيم جموع كثيرة منهم بالمدينة، عنى بالاتفاق معهم على أساس من الحرية والتحالف، فعقد معهم وثيقة سياسية منحت كفالة الحريات العامة بين المواطنين في السلم وفي الحرب، وتضمنت حرية الرأي والعقيدة وحرمة الحياة والمال، وتحريم الجريمة، والضرب على أيدي مرتكبيها، وأكدت العدالة والمساواة بين سكان المدينة على اختلاف عقائدهم في الحقوق والواجبات.

فالتزم سكان (يثرب) من مسلمين ويهود بالاشتراك في المقاومة ضد المغيرين، والدفاع عنها بالأموال والأنفس، فتحقق في المدينة بذلك كل مقومات الدولة التي يقضي بها القانون، فأهلها جماعة من السكان يقيمون بأرض ذات حدود معينة ويشتركون في العمل على تحقيق هدف مشترك، هو بسط لواء الأمن والسلام في المدينة، والقيام بواجب الدفاع عنها، ودستورها هو كتاب الله رب العالمين، وكان على رأس النظام فيها محمد صلوات الله وسلامه عليه، وانفسح المجال أمامه لنشر الدعوة الإسلامية التي وضعت أسس حضارة قدمت للعالم أجل الخدمات. (١٨)

#### هـ . النبوة والرسالة

وأما ما يتعلق بالوحي السماوي ونبوة النبي ورسالته صلّى الله عليه وسلم، فهي تلك الادعاءات الكاذبة التي دحضها علماء المسلمين بعد مطالعة ما أنتجه المستشرقون للنيل من عقيدة الإسلام ورسالته، وكل ما أشاعه أتباعهم والمعجبون بهم عن دراساتهم من منهجية وموضوعية في فترة كان يعاني فيها معظم العالم الإسلامي من الضعف والوهن، فلنا حق أن نعرف ما يقوله الآخرون عن عقيدة الأمة الإسلامية، وأخلاقيتها وثقافتها وحضارتها، ولنا حق أيضا أن نتناول هذه الأقوال بالتحليل والنقد، لأن التهاون والسكوت عنها قد يكون اعتباره تسليما ضمينا بها، فنحن نذكر أولا أقوال المستشرقين في هذه الموضوعات التي لها صلة بشخصية نبينا محمد صلّى الله عليه وسلم:

يقول المستشرق: (كارادي فو Carrade Vaux):

”ظل محمد زمنا طويلا معروفا في الغرب معرفة سيئة، فلا تكاد توجد خرافة، ولا

فظاظة إلا نسبوها إليه“. (١٩)

(١٨) من حضارة المسلمين للدكتور أحمد مجاهد مصباح ص: ٢٦.

(١٩) كتاب المحمدية ص: ٢٠، ط: باريس عام ١٨٩٧ م.

فلا شك أن أصداء الحملات المغرضة ضد الإسلام وعقيده، ورسالة نبيه ﷺ من بعض علماء المستشرقين المسيحيين واليهود هي التي زرعت الضغينة على المسلمين، وأثرت في نفوس الغربيين عامة.

فالمستشرق (كولى) - على سبيل المثال - وصف الإسلام بأنه أسس على التعصب والقوة، وبأنه سمح لأتباعه بالسلب والفجور، وأنه وعد الذين يموتون في القتال (الجهاد) بملاذات الجنة. وتحدث (كولى) عن الحروب الصليبية، فقال: (...) وهكذا تقهقرت قوة الهلال أمام راية الصليب، وانتصر الإنجيل على القرآن، وعلى ما تضمنه من قوانين الأخلاق الساذجة). (٢٠)

ومؤلف هذا الكتاب (محمد رسول الهالك) من أمثال هؤلاء الذين أساءوا إلى أنفسهم، وإلى المسلمين، وإلى المستشرقين النزهاء، حتى صار كل ما يكتبه مستشرق عن الإسلام ينظر إليه بعين الحذر والاحتراز، ويبحث عما يوجد فيه من دس أو ثلب.

وأما ما ورد في كتابه عن القرآن الكريم وهو أيضا ليس جديدا عندنا، لأن معظم المستشرقين يكادون يتفقون على أن القرآن ليس من عند الله، وعلى أن محمدا استقى مادته من الأحرار والرهبان الذين كان يتلقى عنهم المعلومات الدينية من كتب العهدين: العتيق والجديد، فالموضوع يتعلق أساسا بمصدر الوحي.

### و. مصدر الوحي وبشرية القرآن

نحن نؤمن بأن القرآن الكريم كلام الله المنزل بالوحي على قلب الرسول ﷺ، فالله تعالى بذاته الجليلة هو المتكلم به والمنشيء له كما يدل عليه ضمير المتكلم في قوله تعالى: (نحن خلقناهم وشددنا أسرهم) (الإنسان: ٢٨) فميزته على سائر الكتب السماوية هي أنه وحي إلهي في لفظه ومعناه. بينما نرى في العهد القديم والجديد أن النبي هو الذي ينشيء الكلام الذي أوحى به إليه، ثم خاطب به الناس باعتبارهم شعبه. فكان للقرآن دون غيره من الكتب السماوية هذه الميزة الفريدة، وهي أنه (كلمة الله) وقد أبدع فيه من فنون القول ما تحدى به مقارعيه من أهل البيان عن الاتيان بمثله، ورغم ذلك نرى أن أكثر المستشرقين

يميلون إلى بشرية القرآن.

في الواقع أن الموضوع يرتبط جذريا بإقرار النبوة لمحمد ﷺ، لأن الإنكار يفضي إلى نتيجة واحدة لا محالة. فالنبي ﷺ في عقيدتنا الإسلامية هو من أوحى الله سبحانه إليه وحيا، وأمره بتبليغه، فكان رسولا، ينبيء عن الله وينبيء عنه، والوحي الذي أنزله الله عليه، لم يكن إلهاما فاض من استعداد نفسه العالية، ولا من عقله الباطن أو نفسه الروحانية على مخيلته، وانعكس اعتقاده على بصره، فرأى الملك ماثلا له، وعلى سمعه، فوعى ما حدثه الملك به، كما يزعم بعض المستشرقين، وخاصة (مونتغمري وات) الذي تناول هذا الموضوع في كتابه (محمد في مكة) فالخلاف بيننا وبينهم هو في كون الوحي من خارج نفس النبي ﷺ ولم يكن من داخلها كما يتوهمون، وفي نزول ملك روحاني نزل بحق من عند الله عليه ﷺ كما قال عز وجل: (وإنه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين) (سورة الشعراء: ١٩٢-١٩٥)

ومن المستشرقين من يتحدث عن الوحي والنبوة كما يتحدث علماء النفس عن أبطال التاريخ وعظماء الرجال، وقادة الثورات وزعماء الإصلاح الاجتماعي أو عما ينفرد به بعض الناس من خصائص العيون والآذان الداخلية، يلتقطون بها ما لا يتمكن الإنسان العادي من سماعه أو رؤيته، وهذا ما قاد الإنسان إلى تجارب الدين. (٢١)

ويجدر بنا أن نذكر هنا من أقوال بعض المستشرقين في الوحي (القرآن الكريم) لأن أصحابها لم يفهموا حقيقة الوحي والنبوة، كما لم يعرفوا العلاقة التي تربط بينهما، سوى أنهم فهموا أن الوحي ليس سوى حلول روح الله في روح الموحى إليه - كما فهمت المسيحية - وجعلت المسيح إلها بهذا الحلول، لأن من حل فيه روح الله صار إلها. وهو ما يرفضه الإسلام رفضا قاطعا، فالله سبحانه وتعالى لا يحل في غيره، ولا يحل فيه غيره.

وخير شاهد على ما نقول هو قول (درمانج هام: E. Dermanghame): (حين اشتعلت الحرب بين الإسلام والمسيحية، ودامت عدة قرون، اشتد النفور بين الفريقين وأساء كل منهما فهم الآخر، ولكن يجب الاعتراف بأن إساءة الفهم كانت من جانب الغربيين أكثر، فعلى إثر المعركة الفكرية العنيفة التي رموا فيها الإسلام بالمساويء من خلال جدهم



البيزنطي، ودون أن يتعبوا أنفسهم في دراساتهم، هب الكتاب والشعراء المرتزقة من الغربيين وأخذوا يهاجمون العرب، فلم تكن مهاجمتهم إلا تهماً باطلة، بل متناقضة). (٢٢) ومهما يكن من أمر فإن من المستشرقين النزهاء من تركوا أثراً عميقاً في الرأي العام الإسلامي والرأي العام الأوروبي، كالمستشرق الفرنسي (كلود اتيان سافاري) فقد وصف الرسول ﷺ في مقدمة ترجمته للقرآن بالعظمة وقال: (أسس محمد ديانة عالمية تقوم على عقيدة بسيطة، لا تتضمن إلا ما يقره العقل من إيمان بالآله الواحد الذي يكافيء على الفضيلة، ويعاقب على الرذيلة، فالغربي المتنور وإن لم يعترف بنبوته لا يستطيع إلا أن يعتبره من أعظم الرجال الذين ظهوروا في التاريخ).

وكذلك قال المستشرق الإنجليزي (توماس جار لايل) في كتابه (الأبطال وعبادة الأبطال). (٢٣)

”لقد أصبح من أكبر العار على كل فرد متمدن في هذا العصر أن يصغي إلى القول بأن دين الإسلام كذب، وأن محمداً خداع مزور — كما قال (وين) في كتابه (محمد رسول الهلاك) — فإن الرسالة التي أداها ذلك الرجل ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لمئات الملايين من الناس أمثالنا، وخلقهم الله الذي خلقنا. أكان أحدهم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والعد أكذوبة وخدعة؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً، فلو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الزواج، ويصادفان منهم ذلك التصديق والقبول، فما الناس إذا إلا بله ومجانين، وما الحياة إلا سخف وعبث، وكان الأولى ألا تخلق“ (٢٤) ثم حلل (لايل) شخصية الرسول، وكشف عن نواحي عبقريته التي تتجلى فيها أسمى معاني الوحي، وانتهى إلى القول إن محمداً ﷺ كان مخلصاً في دعوته، صادقاً في عقيدته مثل غيره من العظماء المؤمنين.

وهذه هي بعض الآراء للمستشرقين في شخصية النبي العربي ﷺ وهي معتدلة، وكان يجب أن يرجع إليها الكاتب (وين) قبل أن يؤلف كتابه (محمد رسول الهلاك) ليرجع إلى عقله ووعيه، ولا يبقى بعيداً عن دنيا العلم والمعرفة. ☆☆ (يتبع)

(٢٢) حياة محمد ص: ١٢٥، ط: باريس عام ١٩٢٩ م.

Thomas garlyl: On Hero-worship and The Heroic in History, London 1849 (٢٣)

(٢٤) مناهج المستشرقين (تعريب محمد الساعي) ط. ص: ٢٤-٢٥.